

رسالة

الفطرة

ودورها في استنباط أحكام الشريعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ
عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِن
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

آية الله العظمى حسيني نسب



الفطرة

من أهم معايير معرفة الصواب من الخطأ هي الفطرة الإنسانية الأصيلة. هنا ، من أجل توضيح المعاني المعجمية والاصطلاحية والقرآنية والروائية للفطرة ، سوف ندرس الأبعاد المختلفة لهذه الوديسة الإلهية في وجود الأنسان. واستكمالاً للبحث، سنناقش دور الفطرة القيم في استنباط أحكام الشريعة الحقيقية.

الفطرة من وجهة نظر المعاجم اللغوية

في كتب المفردات العربية وآيات القرآن الكريم والأحاديث الإسلامية ، فإن الفطرة لها معاني مختلفة مثل الابتداء ، والشق ، والظهور ، والخلق ، و سلامة الطبع ، والإبداع ،

والعهد الإلهي في عالم الذر ، و الاستعداد لقبول الحق ،
وما شابه ذلك.

المعنى الاصطلاحي للفطرة

من وجهة نظرنا ، فإن الفطرة هي: الإشارة إلى نوع خلق
الإنسان على أساس المواهب البشرية والودائع الربانية في
بُعدي الإدراك و الإحساس، باتجاه الهداية التكوينية
المجبولة في صميم روح الإنسان.

والحديث الشهير لنبي الإسلام: "كل مولود يولد على
الفطرة" ، يشير إلى هذه الحقيقة.

كلمة "الفطرة" بكسر الفاء على وزن "الفِعلَة" هي التعبير
عن نوع الخلق، وهنا تشير إلى إبداع البشر على أساس
الخصائص الموهوبة في وجود الإنسان.

و الخصائص المجبولة في خلق الإنسان هي من نوعين:

1. الخصائص الإدراكية في مجال العقل النظري، مثل القدرة على معرفة الحق من الباطل ، والخير من الشر، والعدالة من الظلم.

2. الخصائص المشاعرية في ضمير الإنسان في مجال العقل العملي، مثل الحكم بلزوم تحقيق الحرية والعدالة الاجتماعية ، ورفض الظلم والتمييز العنصري.

كلمات علماء المعاجم

يقول ابن أثير في كتاب "النهاية" في شرحه لمعنى الحديث النبوي (كل مولود يولد على الفطرة):

"الفطر: الابتداء و الاختراع. و الفطرة: الحالة منه كالجلسة والركبة. والمعنى أنه يولد على الجبلة والطبع المتهيء لقبول الدين".

و يقول الراغب الأصفهاني في كتاب "المفردات":

"فطر الله الخلق، وهو ايجاده الشيء وإبداعه على هيئة
مترشحة لفعل من الأفعال".

الفطرة من وجهة نظر القرآن

يمكن العثور على المشتقات المأخوذة من كلمة "فطر" في
عدة آيات قرآنية بالمعاني المعجمية المذكورة في بداية هذه
المقالة ، لكن "الفطرة" بمعناها المصطلح فهي ما جاء في
الآية التالية:

"فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ
عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ". (سورة الروم، الآية 30).

لذلك ، فإن الفطرة ليست أمرا مكتسبا ، ولكنها وديعة
إلهية تكمن في جوهر الوجود البشري من أجل هدايته
التكوينية. هذه الهداية التكوينية لا تتوافق إلا مع الهداية

التشريعية الحقيقية ، فهي ترفض الإلقانات الزائفة وغير
الواقعية ، سواء في مجال الإدراك و المعرفة أو في موقف
الإحساس و الميل.

وكلمة "الحنيف" في الآية السابقة ، والتي تعني الذات التي
تميل في جوهرها وطبيعتها إلى الحق و الصواب ، تشهد
على هذا القول.

وبناء على ما شرحناه، فإن علامة صحة وصدق الرأي أو
الحكم هي مطابقتها للفظرة. وعلامة بطلانها هي عدم
مطابقتها للفظرة البشرية الأصيلة.

الفظرة مثل الميزان ، الذي يميز الخير عن الشر ، و الحق
عن الباطل ، والعدل عن الظلم ، وهي مثل المقياس الذي
يظهر في ضوءه الانسجام أو التنافر بين الشعور والميل
مع ما يجب فعله وما لا يجب فعله.

الهداية التشريعية الإلهية و الهداية التكوينية الفطرية
عدلان تمامًا مع بعضهما البعض. لذلك فإن المعيار
الأساسي لمعرفة التشريع الإلهي الحقيقي هو توافقه مع
الفطرة البشرية الطاهرة.

عمومية الفطرة لكل البشر

ههنا ملاحظة مهمة أخرى و هي تكمن في الآية المذكورة و
هي عمومية وشمولية متطلبات الفطرة بالنسبة إلى جميع
البشر ، و هي لاتخص فردا أو جماعة معينة.

وكلمة "الناس" في الآية المذكورة ، و هي الجمع المحلى
بالألف و اللام ، و هي تفيد العموم ، دليل على هذا القول.

وعلى هذا الأساس يقول الإمام الصادق (ع) ما يلي في

حديث رواه الشيخ الكليني والشيخ الصدوق:

"إن الله عزوجل خلق الناس كلهم على الفطرة التي
فطرهم عليها".

الفطرة من وجهة نظر الأحاديث

من خلال دراسة الروايات الإسلامية في هذا السياق ،
يتضح أن بعض الأحاديث تشير إلى معاني حرفية ،
وبعضها يشير إلى معاني اصطلاحية ، والمجموعة الثالثة
من الأحاديث تشير إلى أمثلة من مقتضيات الفطرة.

ههنا ننقل لكم بعض الروايات المذكورة كنماذج:

1. يقول نبي الإسلام العظيم (ص): "كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَدِّدُ عَلَيَّ
الْفِطْرَةَ حَتَّى يَكُونَ أَبَوَاهُ هُمَا اللَّذَانِ يَهُودَانِهِ وَ
يُنَصِّرَانِهِ".

(غوالي اللثالي، المجلد 3).

2. يقول زُرارة: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن معنى

كلمة الحنيف في الآية: "حنفاء لله". فأجاب الإمام:

"هِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ

اللَّهِ قَالَ: فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ". (بحار الأنوار، المجلد

3، كتاب التوحيد).

3. يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله:

"ما من نفس تولد إلا على الفطرة". (كنز العمال، المجلد

الرابع).

4. يقول الإمام علي عليه السلام:

"الحمد لله الذي ألهم عباده حمده و فاطرهم على

معرفة ربوبيته". (أصول الكافي، المجلد 1).

5. يقول الإمام الرضا عليه السلام:

"بالفطرة تثبت حجته". (كتاب التوحيد للشيخ
الصدوق).

6. يقول الإمام الباقر في حديث آخر رواه الشيخ الصدوق:

"فطرهم على التوحيد عند الميثاق على معرفته أنه
ربهم".

و يشير هذا الحديث عن الإمام الباقر (ع) إلى آية النذر
الموصوفة في القرآن الكريم على النحو التالي:

"وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا
أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ". (سورة
الأعراف، الآية 172).

7. و يقول النبي الأعظم (ص) في حديث آخر:

"البرّما سكنت إليه النفس واطمأنّ إليه القلب، والإثم
ما لم تسكن إليه النفس و لم يطمئنّ إليه القلب".
(مسند أحمد بن حنبل، المجلد 4).

8. و يقول الإمام علي (ع) نقلا عن الرسول الكريم (ص):

"فيقع في قلب هذا الانسان نور، فيفهم الفريضة و
السنة، و الجيّد و الرديء، ألا و مثّل العقل في القلب
كمثل السراج في وسط البيت". (اصول الكافي، المجلد 1).

النتيجة

في ضوء ما شرحناه يتضح أن الفطرة في القرآن
والحديث هي مجموعة من الخصائص البشرية
والحقائق الإلهية في بعدي الرؤية والإحساس ،
في اتجاه الهداية التكوينية للبشر، كما أن علامة
صحة القضية هي توافقها مع الفطرة ؛ وعلامة
بطلانها هي عدم مطابقتها للفطرة.و إن التمييز

بين الخير والشر ، و بين الحق و الباطل ، وبين العدل و الظلم يتم تحديده وفقاً للفطرة.

لذلك ، إذا صدر حكم شرعي من قبل فقيه يتعارض مع المعيار الفطري الإنساني والإلهي ، فواضح أن هذا الحكم لم ينبع من المصدر الحقيقي للشريعة وبراهينها الصحيحة ، وأن ذلك الفقيه قد أصدر الحكم المذكور بناء على حديث كاذب أو فهم خاطئ لآية أو رواية.

و فيما يلي بعض الأمثلة على هذه الأحكام المخالفة للفطرة:

المثال الأول:

شرع فريق صغير من الفقهاء والمفسرين السبّ والفحش

لمن يظنون أنهم من المنحرفين ، بل إنهم نسبوا الإذن بهذا

الفعل الفاحش إلى القرآن.

وقد اعتبر هؤلاء الفقهاء الآية 13 من سورة القلم دليلاً على ادعائهم ، وهي تصف الشخص الذي ينكر الحقيقة، وتقول:

"عُتِلَّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ".

المجموعة المذكورة فسرت كلمة "الزنيمة" على أنها تعني ولد الحرام أو ولد الزنا. بينما اعتبر العديد من علماء فقه اللغة ومفسي القرآن الكريم أن هذه الكلمة تعني "بلا جذور" (أي من لا أساس له) أو الأجنبي.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو ما إذا كان من العدل الإنصاف توصيف شخص مخالف لمعتقداتنا بأنه ولد الزنا؟

إن الفطرة البشرية النقية ، التي ترى أنه من الضروري مراعاة الأخلاق الإسلامية والأدب الإنساني ، تحكم بأنه

لا ينبغي للمؤمن والمثقف أن يرتكب خطيئة كبرى مثل
الفحش و السبّ و نسبة الاتهامات الكاذبة للآخرين.
لذلك فإن الترجمة الخاطئة لكلمة "الزنيمة" بمعنى
"ولد الزنا" التي تتضمن الفحش والشتائم هي ضد الفطرة
الإلهية للإنسان ، ومن الواضح أن الله لا يأمر المؤمنين
بهذه الخطيئة أبدًا.

وبناءً على ما قلنا ، يتضح أن كلمة "الزنيمة" ، كما قال
علماء فقه اللغة العربية ، تعني "بلا جذور" و "من لا
أساس له" أو "الأجنبي".

والدليل على هذا القول هو كلام الوحي الإلهي في سورة
الأنعام ، الآية 108 ، الذي جاء فيه:

"وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا
بِغَيْرِ عِلْمٍ".

في هذه الآية الكريمة: كل أنواع الفحش و السب محرمة حتى ضد المشركين وخصوم الإسلام ، وسبب ذلك أيضا. أنه في حالة إهانة الخصوم ، فإنهم أيضا يسيئون إلى مقدسات الإسلام ، ويتسببون في توجيه الإهانة الى الحرمات الإلهية.

و على هذا الأساس، يقول نبي الإسلام (ص):

"إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْجَنَّةَ عَلَى كُلِّ فَحَّاشٍ بَدِيءٍ قَلِيلٍ الْحَيَاءِ ،
لا يبالي بما قال ولا ما قيل فيه". (وسائل الشيعة، المجلد
11، الباب 72 من أبواب جهاد النفس ، الحديث 2).

ويقول الرسول الكريم (ص) في حديث آخر:

"من علامات شرك الشيطان الذي لا شك فيه أن يكون
فحاشاً لا يبالي بما قال ولا ما قيل فيه". (وسائل

الشيعة، المجلد 11، الباب 71 من أبواب جهاد النفس ،
الحديث (1).

و يقول الإمام علي عليه السلام لبعض أصحابه الذين
كانوا يشتمون أتباع معاوية:

"إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّائِينَ. وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ
أَعْمَالَهُمْ وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ كَانَ أَصُوبَ فِي الْقَوْلِ وَأَبْلَغَ فِي
الْعُدْرِ. وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ أَيَّاهُمْ: اللَّهُمَّ احْقَنْ دِمَائِنَا وَ
دِمَائِهِمْ وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنَهُمْ وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ
حَتَّى يَعْرِفُوا الْحَقَّ مَن جَهْلَهُ، وَيَرْعَوِي عَنِ الْغِيِّ وَالْعُدْوَانِ
مَنْ لَهَجَ بِهِ. (نهج البلاغة).

في ضوء الآية الكريمة من القرآن الكريم والأحاديث
الإسلامية الأصيلة ، يتضح أن الله عز و جل و رسول الله
ﷺ وأمير المؤمنين (ع) يصرحون بوضوح على ما تحكم به

الفطرة الإلهية للإنسان في رفض كل الشتائم والبذاءات.
ولامجال للشك في ذلك.

و يؤيد ما قلنا في تفسير معنى "الزنيمة" الحقيقي ما صرح
به كبار علماء اللغة و الأدب.

على سبيل المثال ، اعتبر عبد الرحمن السعدي في تفسيره
"تيسير الكريم الرحمن" أن كلمة "زنيمة" تعني شخصاً لا
أساس له ، بل يكون موصوفا بالأخلاق الدنيئة ، و يقول
في شرح أصل كلمة "الزنيمة":

"يقال في اللغة العربية له زنيمة أي أن له علامة في الشر
يعرف بها".

لذلك فإن أصل كلمة "زنيمة" الذي هي "زنيمة" يعني أمراً
سيئاً، و ليس بمعنى ولد الزنا.

و هكذا، اعتبر محمد بن جرير الطبري في تفسيره المسمى
"جامع البيان" أن كلمة "الزنيمة" تعني غريباً عن الجماعة
ويقول:

"الزنيمة عند العرب هو الملقق بالقوم وليس منهم".

وبناءً على ما قيل ، يتضح أن ترجمة كلمة "الزنيمة" في الآية
المذكورة ، بمعنى "ولد الزنا" ، هي باطلة و غير صحيحة ،
لأن هذه الترجمة مخالفة للفطرة الطاهرة الإنسانية . هذا
ما يؤيده القرآن أيضا في آيات متعددة كما شرحنا.

المثال الثاني

ومن الأمثلة الأخرى على الفتاوى ضد الفطرة الإلهية
للإنسان أن بعض الفقهاء وافقوا على تشويه سمعة

المعارضين للمذهب بالافتراء و التهمة ، مستشهدين
بحديث ضعيف.

فمثلاً في كتاب "المكاسب المحرمة" صرح بعدم جواز
الهجو والافتراء بقصد الإهانة بالمؤمنين و عبر عن ذلك
بعمل ممنوع وغير شرعي ، لأن هذا الفعل مرتبط بالغيبة،
وتقصي العيوب ، والقذف ، وكشف أسرار الآخرين. وكل
هذه الأمور تعتبر ممنوعة.

ثم يقول:

"واحترز بالمؤمن عن المخالف؛ فإنه يجوز هجوه لعدم
احترامه".

وقد استدلت هذه الفئة من الفقهاء بحديث ضعيف على
النحو التالي:

"باهتوهم كيلا يطمعوا في إضلالكم". (كتاب الكافي).

وقد فسر الفقهاء السالف ذكرهم المباهة على أنها تعني
"توجيه الافتراء و الاتهام" وعلى هذا الأساس حكموا بجواز

الهجو والافتراء غير المبرر من أجل تشويه سمعة تلك
المجموعة من المعارضين.

يقول مصنف كتاب " المكاسب المحرمة":

"باهتوهم كيلا يطمعوا في إضلالكم" محمول على
اتهامهم وسوء الظن بهم بما يحرم اتهام المؤمن به، بأن
يقال: لعله زانٍ، أو سارق. وكذا إذا زاده ذكر ما ليس
فيه من باب المبالغة. و يحتمل إبقاؤه على ظاهره
بتجويز الكذب عليهم لأجل المصلحة، فإنّ مصلحة
تنفير الخلق عنهم أقوى من مفسدة الكذب.

هذا على الرغم من أن فئة أخرى من الفقهاء فسرت كلمة
"المباهتة" على أنها جدل مذهل يثير الجهد و الدهشة
والارتباك للمعارضين ، وليس توجيه الهجو ونسب
الاتهامات الباطلة إليهم.

ومن الأحاديث الضعيفة الأخرى التي استندت إليها جماعة من الفقهاء لإثبات شرعية الهجو و البهتان على الخصوم المذكورين ما يلي:

"في رواية أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : قلت له : إنّ بعض أصحابنا يفترون ويقذفون من خالفهم ، فقال : الكفُّ عنهم أجمل. ثم قال لي : والله يا أبا حمزة إنّ الناس كلّهم أولاد بغايا ما خلا شيعتنا. ثمّ قال : نحن أصحاب الخمس ، وقد حرّمناه على جميع الناس ما خلا شيعتنا". (وسائل الشيعة، المجلد 11، الباب 73 من أبواب جهاد النفس).

في بداية هذا الحديث الضعيف ، يوصى بالتخلي عن الاتهامات الباطلة والافتراء على الخصوم مع عدم

تحريمها، ولكن في ذيل هذا الحديث الغير الصحيح تمّ
تبرير سخيّف لجوازها.

من الواضح أن هذا الحديث المزعوم ، بالإضافة إلى كونه
مخالفًا لمبادئ الفطرة البشرية الطاهرة، يتعارض أيضًا
مع القواعد العامة للفقهاء الشيعة ، والتي تثبتها الأحاديث
الصحيحة لنبي الإسلام و أهل بيته عليهم السلام.

على سبيل المثال ، وفقًا للقاعدة العامة للفقهاء الإسلامي
الشيعة والتي تسمى بقاعدة "الالزام" ، والتي يوافق عليها
جميع الفقهاء الشيعة ، يجب علينا إلزام غير الشيعة
بحسب ما جاء في فقههم. لذلك ، إذا كان زواجهم في إطار
اجتهادهم ، فسيكون صحيحًا ولا يمكن اعتبار أطفالهم
أطفالًا غير شرعيين.

انطلاقاً من الفطرة الإلهية الخالصة للإنسان ، واستناداً إلى قواعد الفقه الإسلامي المستنبطة من نصوص الأحاديث الإسلامية الصحيحة ، فمن المعروف أن الحديث الذي يعتبر نسبة القذف والهجاء الباطل والافتراءات غير المبررة ضد المعارضين هو حديث كاذب ، إما أن سنده باطل ، أو أن محتواه مزيف و قد تم تحريفه عبر التاريخ.

من الواضح أن مثل هذا الحديث الزائف والضعيف لا يمكن أن يكون أساساً لاستنباط حكم غير أخلاقي ضد الفطرة وحتى ضد أحكام الفقه الشيعي الأصيل .

وهذه أمثلة على أحاديث تستدل بها جماعة من الفقهاء لإثبات جواز الهجو و التهمة ضد المخالفين.

بعد إثبات حجية الفطرة وقواعدها الأخلاقية والإنسانية بالرجوع إلى آيات القرآن الواضحة والروايات الإسلامية الأصيلة والموثوقة ، فمن المعروف أن أحاديث الجماعة المذكورة باطلة و غير معتبرة ، لضعف السند أو إجمال النص. فلا يمكن التمسك بها لإثبات ادعاء سخيف مثل جواز الهجو و الكذب والافتراء الباطل على الآخرين.

المثال الثالث:

مثال آخر على الآراء المناهضة للفطرة هو تفسير بعض المفسرين على الآية 34 من سورة النساء ، قائلين أن كلمة "الضرب" في هذه الآية ، حسب تفسيرهم ، تعني "اللطم". و هذا كلام بلا دليل. و ذلك لأن كلمة الضرب هي من الألفاظ المشتركة ولها أكثر من عشرة معانٍ في اللغة العربية ، وليس هناك معنى واحد تدعيه المجموعة

المذكورة. لذلك ، فإن تحديد معنى محدد من مجموعة معاني اللفظ المشترك يتطلب إثباتاً ودليلاً معتبراً.

وهنا وقبل أن نشرح أسباب منع ضرب الزوجة في الإسلام، علينا أولاً أن نشرح مفاهيم الآية المذكورة ، ثم نشرح المعنى المناسب لكلمة "الضرب" في هذه الآية بالدليل والمنطق الصحيح.

الآية المذكورة تقول:

"الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض و بما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي يخافون نشوزهنّ فعظوهنّ و اهجروهنّ في المضاجع و اضربوهنّ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلاً إنّ الله كان عليّاً كبيراً".

ولشرح المعنى الحقيقي لهذه الآية نلفت انتباهكم إلى

النقاط التالية:

معنى كلمة "القوَّام"

كلمة "القوَّام" تعني شخصًا يكون قوام الأمر به. ولهذا

يعتبر علماء المعاجم العربية أن الكلمة المذكورة تعني:

"المتكفل بالأمر"، وهذا يعني الشخص المسؤول عن

شيء ما. و بما أن واجب إعالة الأسرة و الإنفاق عليها هما

من مسئولية الرجل وفقًا للإسلام ، فقد اعتبر القرآن

الكريم الرجل كداعم للمرأة و المتكفل بأمر معاشها، لأن

الرجل يتحمل نفقات معيشة أفراد الأسرة. فهذه الآية

الكريمة تبين مسئولية الرجل في تحمّل نفقات المرأة، و

لاتدلّ على سلطة الرجال على النساء كما توهمه بعض

الكتّاب.

ما معنى "النشوز" في هذه الآية؟

ومعنى "النشوز" أن المرأة تنتهك الحقوق الشرعية لأهلها أو زوجها بخرق القواعد الشرعية، أو خيانة زوجها.

طرق منع النشوز

والطرق الواردة في هذه الآية الكريمة لمنع النشوز ومخالفة القواعد هي: الوعظ والنصح ، والانفصال عن فراش الزوجة ، و "الضرب" بالمعنى الذي سوف نشرحه، لابمعنى اللطم.

الغرض من الوعظ و النصح واضح. لكن الأمرين الآخرين، وهما "الهجر في المضاجع" و "الضرب" ، يحتاجان إلى مزيد من التوضيح.

يقول العلامة الطباطبائي في تفسير "الميزان": هجر
الزوجة في المضاجع ليس أن الرجل ينفصل عن زوجته في
السكن ويغادر مسكنها نهائيا ، بل أن يبقى معها في نفس
البيت و لكن ينفصل عنها في الفراش و سرير النوم. بحيث
يبتعد عنها أو يتجاهلها بطريقة ما، في فترة معينة، لاشكل
دائم.

ما هو المقصود من "الضرب" في هذه الآية؟

لكلمة "الضرب" في اللغة العربية معاني عدة. على سبيل
المثال، يقول في كتاب "لسان العرب":

"ويقال: فلان يضرب المجد ، أى: يكسبه ويطلبه".

هنا كلمة "الضرب" تعني الحصول على شيء أو شخص
والمطالبة به.

ولإثبات هذا المعنى في الضرب ، أشير الى قصيدة
"الكُميت" وهو شاعر وكاتب مشهور في اللغة العربية ،
كما يلي:

رحب الفناء اضطراب المجد رغبته

والمجد أنفع مضروب لمضطرب

في هذا البيت من القصيدة ، الضرب يعني الطلب
والحصول على شيء ، والمضروب يعني المطلوب و المرغوب
فيه.

و كذلك، تأتي كلمة "الضرب" بمعنى المعاشرة الجنسية
بين زوجين. على سبيل المثال ، في قاموس "معجم المعاني
الجامع" وغيره من قواميس الكلمات العربية ، نقرأ ما يلي:

"ضرب الفحل الناقة: نكحها".

في هذا المثال ، تعني كلمة "الضرب" المعاشرة الجنسية بين زوجين.

إضافة إلى المعاني المذكورة ، فإن كلمة "الضرب" تعني الفصل والتباعد. يقول في كتاب "لسان العرب":

"قال أبو عبيد: ضرب الدهر بيننا، أي : بعد ما بيننا".
كلمة الضرب في هذا المثال تعني الانفصال و التباعد.

في هذه الأمثلة الثلاثة للمعاني ، تُستخدم كلمة "الضرب" بدون حرف الجرّ. كما أن كلمة "الضرب" في الآية 34 من سورة "النساء" متعدية بدون حرف الجرّ.

وهي هنا معاني أخرى لكلمة "الضرب".

على سبيل المثال ، في جزء آخر من كتاب "لسان العرب" ، اعتبر أن كلمة "الضرب" تعني المنع و الكفّ والإعاقة ويقول:

"ويقال: ضربت فلانا عن فلان ، أى : كففته عنه"

و على أساس ما شرحناه، فإن لفظة "الضرب" تحمل المعاني المتعددة الأخرى إضافة إلى معنى "اللطم". و نحن نعتقد أن الضرب في هذه الآية الكريمة المذكورة لا يعني بالضرورة ضرب النساء بمعنى توجيه الضربة و اللطم اليهن، بل يمكن أن يعني سلوكيات أخلاقية مناسبة مثل:

- مطالبة و كسب قلوبهم بأساليب عاطفية ،

- انفصال الزوج والزوجة في مسكنين منفصلين لفترة

زمنية معينة (دون طلاق) ،

- منعهم من ارتكاب الجرائم بالطرق القانونية.

- دفع العلاقات العاطفية والزوجية.

وعلى الرغم من أن الطريقة الأخيرة تتفق مع أحد المعاني

الحرفية "للضرب" ، إلا أنها قد تكون مفاجأة لمن ليس

لديه خبرة في مجال أسباب نشوز الزوجة و عصيانها في

كثير من الأحيان. ولكن بدراسة عوامل الخلاف بين الزوج والزوجة التي تؤدي أحيانًا إلى نشوز الزوجة و عصيانها أمام الزوج أو طلاقهما ، يتبين أن من أهم أسباب شكوى الزوجة أو نشوزها هو أن زوجها مشغول جدًا بأموره أو بارد الطبع ، فلا يهتمّ بالاحتياجات العاطفية والجنسية للزوجة. ويمكن أن يؤدي استمرار هذا الإهمال إلى عواقب غير مناسبة مثل استياء زوجته أو احتجاجها أو عصيانها و نشوزها. في مثل هذه الحالة ، فإن الحل الصحيح ليس هو توجيه اللطم والضربة للزوجة ، لأن مثل هذا العمل العنيف يزيد من الكراهية والغضب الدافع على التمرد الأكثر و الأشدّ، ولكن ربما دفء العلاقات العاطفية و المعاشرة الزوجية يؤدي إلى تقليل نشوز الزوجة وعصيانها بطريقة مواتية، أو يوجب القضاء على تلك المشاكل كليًا.

وروي في قصة إرشادية أن زوجة أحد صحابة رسول الإسلام الحبيب الملقب "عثمان بن مظعون" جاءت إلى الرسول (صلى الله عليه و آله وسلم) تشكو وتحتج من برد العلاقة الزوجية والإهمال من زوجها بسبب انخراطه المستمر في الصلاة والعبادة.

دعا رسول الله ﷺ عثمان بن مظعون وقال له:

"لم يرسلني الله تعالى بالرهبانية ولكن بعثني بالحنيفيه السهلة السمحة، أصوم وأصلي وأمس أهلي فمن أحب فطرني فيستنّ بسنتي ومن سنتي النكاح". (الكافي، ج 5).

على أيّ حال ، فقد تم التعبير في قواميس اللغة العربية عن معاني مناسبة أخرى لكلمة "الضرب" غير اللطم ، والتي ذكرنا هي بعض الأمثلة منها.

وعلى الرغم من كل هذه المعاني المناسبة لحل الخلاف الأسري بين الزوج والزوجة ومنع نشوز الزوجة وعصيانها،

فهل يقال إن معنى الضرب في هذه الآية هو لطم الزوجة فقط ؟

وبالرجوع إلى "الفطرة" نخلص إلى أن هذا التصور الخاطئ، أي جواز ضرب الزوجة بمعنى اللطم، مرفوض تماماً من وجهة نظر الفطرة الإلهية الموهوبة للإنسان. لأنّ:

أولاً: استناداً إلى القواعد الفطرية في بُعد المعرفة والإدراك، فإن ضرب الزوجة لا يحل مشكلة الخلاف الأسري وعصيان الزوجة فقط ، والذي يسببه عدم الرضا عن الزوج ، بل يزيد أيضاً من تراكم المشاكل. هذا العمل ضد الحكمة والعقلانية الفطرية.

ثانياً: في بُعد الحكمة العملية ، السماح للزوج ، وهو أحد طرفي الخلاف ، بإصدار حكم من جانب نفسه وفقاً

لتقديره ، والحكم على زوجته بأنها "ناشزة" ، كأنه هو نفسه القاضي ، ثم الإقدام بمعاقبة زوجته باللطم، كلّ هذه الأمور مخالفة للعدالة و الفطرة.

بالإضافة إلى ما شرحناه، لدينا أحاديث صحيحة و معتبرة تدل على عدم جواز توجيه الضربة و اللطم للزوجة من قبل الزوج.

كما ورد عن نبي الإسلام ﷺ أنه أمام من يسأل عن ضرب زوجته ، يستغرب من له مثل هذا السلوك الفظيع و يقول:

"كيف تعانق المرأة بيد ضربت بها؟". (وسائل الشيعة - المجلد 15).

من هذه العبارة ذات المعنى يتضح أن رسول الله ﷺ يدين بشدة ضرب الزوجة وعقابها الجسدي من قبل الزوج.

وفي مكان آخر أعرب نبي الإسلام عن استغرابه من سلوك

بعض الرجال الذين يضربون زوجاتهم ، فقال:

"أيضرب أحدكم المرأة ثم يظلّ يعانقها؟". (اصول

الكافي، المجلد 5).

في ضوء ما قلنا، من الواضح أنه وفقًا للفطرة ، فإن

الرجل في نزاع عائلي ، وفقط بسبب احتمال نشوز و تمرد

زوجته ، لا يحق له يحكم بأن أداء زوجته يكون نشوزا

بحسب رغبته الشخصية ، ثمّ يصدر الحكم بوجوب

عقابها كقاضٍ ، ثمّ ينفذ الحكم الصادر من نفسه في حق

زوجته بتوجيه الضربات و اللطمات للزوجة.

هذا أمر يخالف العقل و العدل و الفطرة الطاهرة

الإنسانية، كما يخالف أحاديث الرسول الأعظم صلى الله

عليه و آله و سلّم.

المثال الرابع:

ومثال آخر على فتاوى تتنافى مع الفطرة الإلهية الخالصة للإنسان أن بعض الفقهاء اعتبروا غير المسلمين كحيوانات وشرّعوا – على هذا الفكرة الباطلة - النظر إلى عوراتهم!

لقد استدلت هذه المجموعة من الفقهاء برواية واحدة ليست "صحيحة" ولا "موثقة" ، وكذلك برواية أخرى "مرسلة".

فمثلاً نقرأ في كتاب "موسوعة الإمام الخوئي" ج 4 ص

322 في حكم رؤية عورة المسلمين وغير المسلمين ما يلي:

"وأما بالإضافة إلى حرمة النظر إلى عورة الكافر ففيه

كلام وخلاف، وقد ورد جوازه في روايتين وإن كان يحتمل

اتحادهما إحداهما: حسنة ابن أبي عمير عن غير واحد

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: «النظر

إلى عورة من ليس بمسلم مثل النظر إلى عورة الحمار".

(الوسائل 2: 35/ أبواب آداب الحمام ب 6 ح 1).

و ثانيتهما: مرسلة الصدوق عن الصادق (عليه السلام)

أنه قال: «إنما أكره النظر إلى عورة المسلم، فأما النظر

إلى عورة من ليس بمسلم مثل النظر إلى عورة الحمار".

(الوسائل 2: 35/ أبواب آداب الحمام ب 6 ح 1).

وهما صريحتان في الجواز كما ترى، ولعل الوجه فيه

أن غير المسلم نازل عن الإنسانية وساقط عن الاحترام

فحالهم حال الحيوان، لأنهم كالأنعام بل هم أضل.

وهذا أعني القول بالجواز هو المحكي عن جماعة، وهو

ظاهر الوسائل والحدائق بل الصدوق أيضاً، لأن إيراد

الرواية في كتابه يكشف عن عمله على طبقها".

و من الواضح أن الفتوى المذكورة ، بالإضافة إلى كونها مبنية على روايات ضعيفة لا يعول عليها ، مرفوضة وباطلة من وجهة نظر الفطرة الإلهية النقية للإنسان.

كثير من غير المسلمين ، وخاصة أولئك الذين لم تثبت لديهم حقانيّة الإسلام ، والذين يتبعون دينهم السماوي ويؤدّون الأعمال الصالحة ويعيشون حياة سليمة دون الإضرار بالآخرين ، هم أناس طيبون، و يقوم القرآن الكريم بمدحهم ويقول:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . (سورة البقرة، الآية 62).

إضافة إلى ذلك ، كرم الله الإنسان بما هو إنسان وقال:

"وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ
مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا".
(سورة الإسراء، الآية 70).

مع وجود العديد من آيات القرآن التي تعبر عن كرامة
البشر ، والتي تشمل غير المسلمين أيضا، هل يمكن
اعتبار غير المسلمين عموماً مساويين للحمير والحيوانات
الأخرى؟

حاشا وكلاً!

كما أن النظر إلى الأعضاء التناسلية أمر مقيت ومرفوض
من وجهة نظر الأخلاق الإنسانية و الشريعة الإسلامية ،
كما أن الفطرة الإنسانية للمسلمين وغير المسلمين تشعر
بالخزي والإهانة من هذا الفعل الفظيع.

وعليه فإن القرآن الكريم يأمرنا بالكفّ عن النظرات
الجائرة ويقول:

"قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا
فُرُوجَهُمْ". (سورة النور، الآية 30).

في بداية الآية الكريمة قد منع الله أهل الإيمان عن
النظرات المخزية عامة.

و من هنا ندرك قيمة كلام أمير المؤمنين (ع) في وصف
الفطرة الإلهية الخالصة للإنسان وأصالتها في فهم أفضل
للأحكام الإسلامية والشرائع الإلهية، حيث يقول:
"فيقع في قلب هذا الانسان نور، فيفهم الفريضة و
السنة، و الجيّد و الرديء، ألا و ممثّل العقل في القلب
كمثّل السراج في وسط البيت". (اصول الكافي المجلد 1).

دراسة أحاديث "الطينة"

وردت في كتب الأحاديث الإسلامية روايات كثيرة تتحدث عن طينة الإنسان. ومضمون بعض هذه الأحاديث هو التعبير عن الاختلاف بين طينة المؤمنين و طينة غير المؤمنين ، وهو ما يمكن أن يكون سبب الاختلاف بين الناس في سعادتهم أو شقاوتهم.

وهنا لتوضيح هذه الروايات و صحتها أو سقمها ، نذكر أولاً المعنى الحرفي والاصطلاحي للطينة ، ثم ننقل الأحاديث المذكورة من مصادر مختلفة ، و ندرس النسبة بين محتويات هذه الأحاديث – على فرض صحتها - مع موضوع الفطرة.

المعنى الحرفي لـ "الطينة"

لكلمة الطينة معاني مختلفة في القواميس العربية ، مثل:

- قطعة من الطين والتربة الممزوجة بالماء ،

- الطبع

- الطبيعة

- الخلق،

- المعدن،

- الجبلّة ،

- الشيمة

المعنى الاصطلاحي للطينة

ههنا نظريات مختلفة حول المعنى الاصطلاحي للطينة.

اعتبر بعض المفكرين أن الطينة تعني "الجوهرة التي

خلقت منها الروح البشرية".

و آخرون ، بتفسير مشابه ، اعتبروا أنها تعني "الهيولى و
المادة الأولى من الخلق البشري".

و قال الآخرون : الطينة تعني "الشاكلة الوجودية
للإنسان".

أحاديث الطينة

قبل ذكر أحاديث الطينة نشير إلى أنه على الرغم من
تعدد الأحاديث في هذا الباب إلا أن الكثير منها ضعيفة،
ونص العديد من الأحاديث المذكورة مجملة، ومحتويات
كثير منها تتعارض مع مبادئ وقواعد المعتقدات
الإسلامية.

لهذا السبب أقرت مجموعة من علماء الفقه والحديث
بضعف أحاديث الطينة و عدم اعتبارها.

الحديث 1. "عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ
اللَّهِ (ع) وَمَعِيَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِنَا فَقُلْتُ لَهُ جُعِلْتُ فِدَاكَ
يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ إِيَّيْ لَأَغْتَمُّ وَأَحْزَنُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَعْرِفَ
لِذَلِكَ سَبَبًا فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (ع): إِنَّ ذَلِكَ الْحَزْنَ وَ
الْفَرَحَ يَصِلُ إِلَيْكُمْ مِنَّا لِأَنَّا إِذَا دَخَلْنَا عَلَيْنَا حُزْنٌ أَوْ سُرُورٌ
كَانَ ذَلِكَ دَاخِلًا عَلَيْنَا لَأَنَّا وَإِيَّاكُمْ مِنْ نُورِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
فَجَعَلْنَا وَطِينَتَنَا وَطِينَتَكُمْ وَاحِدَةً وَ لَوْ تَرَكْتُ طِينَتَكُمْ
كَمَا أَخَذْتُ لَكُنَّا وَ أَنْتُمْ سَوَاءٌ وَ لَكِنْ مُزِجْتُ طِينَتَكُمْ
بِطِينَةِ أَعْدَائِكُمْ فَلَوْ لَا ذَلِكَ مَا أَذْنَبْتُمْ ذَنْبًا أَبَدًا". (علل
الشرايع ج ١).

ومضمون هذا الحديث أن طينة الأئمة المعصومين (عليهم
السلام) كانت من نور الله ، ولهذا السبب هم معصومون
من الذنب ، وطينة الشيعة أيضا كانت من نفس النور

الإلهي ، وإذا كانت تبقى على حالتها الأصلية ، فهم (أي الشيعة) أيضًا كانوا معصومين من الخطيئة ، لكن بما أنهم اختلطت طينتهم بطينة أعداء الشيعة بمرور الوقت، فقدوا موقع العصمة من الذنب وقد يرتكبون الخطيئة.

وبما أن هذا البيان يتعارض مع الآيات القرآنية و الأحاديث الصحيحة التي تعتبر أن جميع البشر متساوون في الفطرة الإلهية ، فقد رفضها كثير من علماء الإسلام و كبار الشيعة، و قالوا بأن كثيرا من هذه الأحاديث تم جعلها ونشرها من قبل الغالبيين.

يقول الله سبحانه و تعالى في القرآن الكريم في بيان اشتراك جميع البشر في التمتع بهذه الموهبة الإلهية:
"فطرة الله التي فطر الناس عليها".

كما أن الإمام الصادق (ع) أيضا يقول في حديث رواه

الشيخ الكليني والشيخ الصدوق:

"إن الله عزوجل خلق الناس كلهم على الفطرة التي

فطرهم عليها".

الحديث 2- عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ (ع) قَالَ: إِنَّ اللَّهَ

خَلَقَ النَّبِيِّينَ مِنْ طِينَةِ عَلِيِّينَ قُلُوبِهِمْ وَ أَبْدَانِهِمْ وَ خَلَقَ

قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ تِلْكَ الطِّينَةِ وَ خَلَقَ أَبْدَانَهُمْ مِنْ دُونَ

ذَلِكَ وَ خَلَقَ الْكُفَّارَ مِنْ طِينَةِ سَجِّينِ قُلُوبِهِمْ وَ أَبْدَانِهِمْ

فَخَلَطَ الطِّينَتَيْنِ فَمِنْ هَذَا يَلِدُ الْمُؤْمِنُ الْكَافِرَ وَيَلِدُ الْكَافِرُ

الْمُؤْمِنَ وَ مِنْ هَاهُنَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنُ السَّيِّئَةَ وَ مِنْ هَاهُنَا

يُصِيبُ الْكَافِرُ الْحَسَنَةَ فَقُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ تَحْنُ إِلَى مَا

خُلِقُوا مِنْهُ وَ قُلُوبُ الْكَافِرِينَ تَحْنُ إِلَى مَا خُلِقُوا مِنْهُ.

(الكافي، للكليني، ج 1، و كتاب الإختصاص، للشيخ
المفيد، ص 24).

وإن كان مضمون هذا الحديث لا يتعارض مع مبدأ حرية
الإرادة البشرية، لأن رغبة الإنسان في عجينته التي ورد
ذكرها في هذا الحديث لا تعني أنه مجبر وملزم باتباع
مقتضياتها، و لكن الحق هو أن صرف نسبة التمييز بين
الناس في خلق طينتهم لا يكون متوافقاً مع العدالة الإلهية
و الأدلة التي تدلّ على مشاركة جميع البشر في التمتع
بالفطرة الإلهية الخالصة.

كانت هذه أمثلة على أحاديث "الطينة".

و بسبب ضعف الكثير منها ومعارضة محتواها للعدالة
الإلهية أو مبدأ اختيار الإنسان في تقرير المصير، اعتبرت

مجموعة من العلماء الكبار الأحاديث المذكورة بأنها
أحاديث وهمية و مزيفة.

و بعض الكتّاب قبلوا الروايات المذكورة وفي نفس الوقت
كرسوا جهودهم لتبريرها وتفسيرها و حملها على المعاني
المجازية ، كما أقروا بتعقيد أو صعوبة وعدم فهم
محتوياتها.

أما المجموعة الثالثة فقد قبلت أحايث الطينة بنفس
مظاهر المحتويات وبدون تفسير وحملها على المعاني
المجازية.

من الواضح أن المعاني الظاهرة من الروايات المذكورة ،
تعارض مع العديد من المعتقدات الإسلامية والشيعية ،
والأدلة الواضحة التي تثبت مشاركة جميع البشر في
التمتع بالفطرة الإنسانية الطاهرة. فلا يمكن التمسك بها

لإثبات التمييز بين الناس في خلقهم بما يعارض العدالة

الإلهية و مبدأ الاختيار للإنسان في تعيين المصير.

و الحمد لله ربّ العالمين.
